المتيجة خلال الفترة الرومانية من خلال الاكتشافات الأثرية [1]

أ. د صغيري أحمد
جامعة منتوري قسنطينة

يعد سهل المتيجة ومنذ العصور القديمة من أخصب المناطق الزراعية في شمال إفريقيا ونظرا لخصوبته هذه فقد جلب إليه أنظار وأطماع الكثير من شعوب العالم التي قامت بإنشاء مستوطنات فيه واستغلال أراضيه الزراعية، نذكر من بينها الرومان الذين قاموا بإنشاء إمبراطورية شاسعة ضمت أقطار من قارات أوربا وآسيا وشمال إفريقيا.

ونذكر في البداية بان المراجع الخاصة بتاريخ المنطقة خلال الفترة الرومانية تعد قليلة، وبالرغم من قلتها نسعى إلى إبراز أهمية المنطقة من الناحية الاستراتيجية والزراعية وذلك بالتطرق إلى بعض الاكتشافات الأثرية الرومانية التي تم العثور عليها، محاولين بذلك إعطاء صورة ولو بسيطة عن تاريخ سهل المتيجة خلال الفترة الرومانية.

وللتذكير فان الفينيقيين هم أول من استقر في الجهة الشمالية – الشرقية لمنطقة المتيجة، على مقربة من رأس ماتيفو Cap Matifou والمعروف باسم رأس تامنفوست، حيث أسسوا مستعمرة تعرف باسم Rusguniae وفي نفس المكان أمر الإمبراطور أكتافيوس والملقب بأغستوس (تولى الحكم في سنة 27 ق-م) بإنشاء مستعمرة ذكرها بلين[2] باسم colonia Augusta Ruscaniae، كانت قبالة مدينة ايكوزيوم (مدينة الجزائر).وقد عرفت هذه المدينة تطورا كبيرا حسب آثارها الكثيرة التي تدل على ذلك، لكنها دمرت فيما بعد على يد الوندال.

ويقول الادريسي في هذا النطاق[3] "أن تامنفوست هو ميناء جميل يوجد على مقربة من مدينة دمرت بأكملها وربما يشير هنا إلى الوندال الذين قاموا بتحطيمها ويواصل قائلا فأسوارها دمرت تقريبا بأكملها، وكان عدد سكانها قليل جدا، ويقال بأنها كانت في الماضي مدينة كبيرة بحيث نرى بقايا لبنايات قديمة، ومعابد وأعمد".

و في نفس السياق يذكرنا المؤرخ لوباز دو قومارة [4] بأنه عثر في نفس المكان على منازل ومعابد وقنوات لتوزيع المياه تعود إلى الفترة التاريخية القديمة، بحيث كانت هذه الآثار كثيرة وجميلة.

لكن هذه البقايا الأثرية قد تم استعمالها فيما بعد في بناء قلعة تامنفوست، وكذلك من طرف الأهالي في بناء منازلهم التي تقع في مدينة الجزائر وفي هذا السياق يقول ليون الافريقي[5] " بأن هذه الحجارة (حجارة تامنفوست) قد تم استعمالها في إعادة بناء أسوار مدينة الجزائر وذلك في بداية القرن 16 وفي نهاية هذا القرن وقف "مارمول"[6] عند نفس الملاحظة التي ذكرها ليون الإفريقي، بحيث قال " فهي مدينة قديمة أسست من طرف الرومان.وبها ميناء كانت ترسو به سفن مدينة الجزائر ويطلق عليها الأفارقة اسم تامنفوست. وقد كانت مدينة جميلة خلال الفترة الرومانية، لكن القوطيين قاموا بتدميرها، ومن ثم تم استعمال آثارها في توسيع مدينة الجزائر. أما رونودو (وهو كاتب

عاش في بداية القرن 19، وكان ضابطا سابقا لحرس قنصل فرنسا في مدينة الجزائر) يذكر في كتابه تاريخ مدينة الجزائر[7] بأن استعمال مواد البناء الرومانية في بناء مدينة الجزائر استمر حتى القرن19.

كما وجدت في مدينة الجزائر كتابات حجرية تم العثور عليها في روسقينا نذكر من بينها تلك التي نقشت على شرف شخص يدعى Lucius Fadius بحيث تشير هذه الكتابة إلى أن هذا الشخص قام بتخفيض سعر القمح. وما يمكن استخلاصه من هذه الكتابة أنه كانت تحصل خلال الفترة الرومانية كما هو في عصرنا اضطرابات في محاصيل القمح نتيجة للجفاف وأن المنطقة كان يزرع فيها القمح.

ونحاول الآن أن نتطرق إلى بعض الاكتشافات الأثرية التي عثر عليها القائد العسكري شاردون Chardon في روسقينا، خلال الفترة الممتدة من نوفمبر 1899 إلى فيفري1900، بحيث تم اكتشاف حمامات وكنيسة وقناة لتوزيع المياه آتية من الناحية الشرقية وقبور وعدد كبير من النصب النذرية تظهر أشخاصا يحملون قرابين، وتمثال مصنوع من البرونز للإله ماركور، بالإضافة إلى بقايا أثرية صغيرة تم العثور عليها بضواحي روسقينا، ويعتقد بأنها ضيعات ومنازل.

وللتذكير فان الاحتلال الروماني لم يكتفي ببناء مستعمرة تقع على ساحل المتيجة فقط، بل توغل إلى الداخل وتشهد على دلك العديد من البقايا الأثرية التي تم العثور عليها في المنطقة، ففي موقع أثري يقع بالقرب من جسر الحميز (في الناحية الشرقية للسهل)، عثر على تمثال لامرأة صنع من المرمر، كما تم اكتشاف بقايا لمعسكر روماني تقع على مقربة من وادي بودواو.

أما في المنطقة الوسطى لسهل المتيجة فقد تم اكتشاف بعض المقابر وبقايا لفسيفساء بوادي العلايق، بالإضافة إلى قنوات لتوزيع المياه وجدت على مقربة من بوفاريك والتي تدل على أن الرومان كانوا يبدون اهتماما كبيرا بأشغال المياه في هده المنطقة.

وما يمكن ملاحظته أن البقايا الأثرية تعد كثيرة في المنطقة الغربية للمتيجة، بحيث عثر على بعد حوالي 500 متر من الناحية الجنوبية-الشرقية من قرية موزاية، في المكان المعروف باسم "الحاجب" على بقايا لمعسكر روماني، بحيث يقع هدا الأخير على الطريق الدي كان يربط بين شرشال (سيزري) والمتيجة. ودوره يتمثل في مراقبة أحد أبواب الجهة الجنوبية ألا وهو باب المدية وذلك عن طريق جبل موزايا. واكتشفت كتابة حجرية يذكر فيها بأن الحصن أعيد بناؤه في عهد الإمبراطور كونستونس"

وحسب تقارير القادة الفرنسيين فان قلة القروض الموجهة للحفريات كان بمثابة عائق للقيام بتنقيبات علمية في بداية الفترة الاستعمارية، بالإضافة إلى ذلك فأن المعمرين كانوا يقومون باستعمال حجارة هذا الحصن في بناياتهم الخاصة مما تسبب في فقدان الكتابات التي كانت تنقش عليها، كما تسببوا في تحطيم عدة بنايات كبوابة للمعسكر الروماني. بالرغم من ذلك فقد تم العثور على تمثال للإله باخوس (وهدا دليل على زراعة العنب وإنتاج الخمور في المنطقة)، بالإضافة وجود جرة (وقد كانت تستعمل ربما لحفظ الزيت أو الخمور)، كما عثر على أشياء متنوعة كخاتم ذهبي ومصباح زيتي صنع من البرونز. والأدلة الأخرى على تواجد الرومان بالمتيجة الغربية نذكر من بينها: ضريح ومنزلين بالقرب من قرية مارنقو Marengo

بالإضافة إلى بعض البقايا الأثرية المنتشرة هنا وهناك والتي تدل ربما على وجود ضيعات بنفس المنطقة.

الخلاصة:

مما سبق ذكره يمكننا أن نستخلص بعض النتائج التي يمكن حصرها في النقاط التالية:

1 – أن سهل المتيجة كان يعد من أخصب المناطق الزراعية في شمال إفريقيا وقد يعود ذلك إلى التربة الصالحة لزراعة مختلف المنتوجات الزراعية كزراعة الزيتون والقمح، كما يعود ذلك إلى المناخ الملائم لتلك المزروعات.

2 – إن العثور على جرار كبيرة الحجم وعلى تمثال للإله باخوس لهو دليل على أن سهل المتيجة كانت تستعمل فيه زراعة الكروم الموجهة للخمور وكذلك زراعة الزيتون والتي كانت تصدر إلى روما.

3 – أن البقايا الأثرية الخاصة بأشغال الري : كقنوات توزيع المياه وحفر الآبار لدليل على إتقان الرومان لهذا النمط من العمل، مما ساعد على إيصال المياه من المنابع إلى المنازل والصهاريج، كما كانت تستخدم في عمليات الري التي تساعد على وفرة المنتوجات الزراعية.

4 – أن بقايا المعسكر الروماني في المنطقة لهو دليل على أن الفيلق الروماني كان متواجد في المنطقة ليراقب عن قرب تحركات الأهالي خشية من ثوراتهم ضده.

5 – أن ميناء تامنفوست يكون قد لعب دورا في تصدير الزيتون والحبوب والسوائل

الهوامش:

(1) Voir l'étude faite par ; J. Franc, La Mitidja de l'antiquité, in Revue africaine, 1927, p.420-430

(2) Pline, Hist.nat., T.I, V, 2.

(3) EL Idrissi, Déscription de l'Afrique et de l'Espagne, ed. et traduction de Dozy et De Goeje, 1866, p.104

(4) Barbarrojas,p.107 Cronica de los , Lopez de Gomara

(5) Léon l'Africain, t.III, édition : Shaefer et Cordier, 1898, p .68

(6) Marmol, L'Afrique, t.II, p.409

(7) Renaudot, Histoire d' Alger, p.12